« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز
في تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الأول

تحقيق وتعليق

الرحالي الفاروق — عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد ابراهيم — محمد الشافعي صادق العناني

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

(جميع الحقوق محفوظة للمحققين)

الطبعة الأولى

المحـرم ١٣٩٨ هـ
الدوحـة :
ديسمبر ١٩٧٧ م

«تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع ..... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» .

(ابن تيمية)

«لمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها» .

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، علّم القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، هَدَى الحائر ، وأرشد الضال ، وأُعْطِيَ جوامع الكَلِم وَفَصْلَ الخطاب ،وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبداً : كتاب الله ،وسنة نبيه .

نحمده سبحانه أن أنعم علينا بنعمة الإيمان ، ونشكره وحده أن هدانا لهذا العمل ، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله ، وإنها لنعمة كبرى ، أن يُيَسِّر الله لنا خدمة كتابه العزيز ، وأن يجعلنا ممن يتعلمون القرآن ويُعلّمونه ، وممن يسهمون بجهودهم في سبيل الأُمة الاسلامية المجيدة .

وليس من شك في أن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذه الأُمة بفضله ، ومنحها الخير الدائم ، حين أنزل فيها هذا الكتاب العزيز دستوراً ومنهاجاً ، وهداية وبشارة ، وشفاءً ورحمة ، [إنَّ هذا القرآن يَهْدي لِلَّتي هي أَقْوَمُ ، ويُبشّرُ المؤْمنينَ الّذينَ يَعْمَلونَ الصالحاتِ أَنَّ لهم أَجْراً كبيراً] . [وَنُنَزلُ من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤْمنين] .

ولقد عاش المسلمون في ظلال هذا الكتاب سادة أعزة ، وإخوة أحبة ، وَكَوَّنوا مجتمعاً فريداً في مبادئه وقِيَمِهِ ومُثُلِهِ ، وكانوا على هذا يعتصمون به من المحن ، ويتغلبون به على الفتن ، ويرجعون إليه في أُمور دينهم ودنياهم ـ وكانوا دائماً بفضله خير الأُمم ، إنه كتاب حق ونور ، وَصَفَه مُبَلِّغُهُ الصادق صلى الله عليه وسلم فقال :

(كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأُ مَنْ قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحُكْمُ ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه تجبُّراً قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيرِه أَضَلَّه

الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملُّه الأتقياء . مَن علِمَ علمَه سبق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم) .

ثم خَلَفَ من بعد الآباء أبناء تركوا هذا الكتاب فَضَلَّتْ بهم الطرق ، وعَمِيَت عليهم الدروب ، وأصبحوا وراء الأُمم حضارة ومعرفة ، ولولا بقية من المؤمنين الصادقين ظلت متعلقة به ، مسترشدة بتعاليمه ، متمسكة بمبادئه ـ لضاعت هذه الأُمة الإسلامية في زحام الحياة .

نعم ـ لولا القرآن يُتْلى ويدرس بين هذه الأُمة ، لَكُتبَ عليها الفناء كما كُتِب على غيرها ، لكنه ـ ولله الحمد ـ ظل على الأيام منارة هداية ومعرفة ، وأُسلوب حياة قوية متينة ، وستبقي هذه الأُمة في ظلال هذا الكتاب الخالد برغم الأعداء وما يكيدون ، وبرغم الصراع العنيف بين المذاهب والآراء ، مصداقاً لقول الله تعالى [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] .

إننا نعيش بين أبعاد للزمن ثلاثة ، نعيش بين الأمس واليوم والغد ـ ويومنا هو وليدُ أمسنا ، وغَدُنَا وليدُ يومنا ، ولن نستطيع أن نخرج على حدود هذه الأبعاد الزمنية ، لا نستطيع أن نعيش خارج الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله ، فنحن جزءٌ منه ، وهو بأبعاده جزءٌ منا ، وإذا كان الحاضر يبدو أقوى في مشاعرنا وأفكارنا وحواسنا لأننا نحياه ، فإن الماضي يبقى بقوته وراء الأحداث واضح التأثير ، قويَّ التوجيه ، لأننا نتاجه ، وأثر من آثاره ، ومن هنا كان علينا أن نجمع إلى يومنا أمسنا ، وأن نرجع إلى ماضينا نأخذ منه الخبرة والتجربة ، ونستمد منه الأصالة والقوة ، في كل ما نحتاج إليه من علم ومعرفة حتى نصل إلى الغد في أمان .

لا بد أن نربط الماضي بالحاضر ، وأن نعيد إحكام الصلة بين أبعاد الزمن الثلاثة لنرجع كما كنا في ماضينا : عِلْماً ومعرفة ، وسيادة وعزة ، ومنعة وقوة ، وتقدماً وازدهاراً ، لا سبيل أمامنا غير هذا ، وإذا تركنا ماضينا ضاع منا حاضرنا ، وضاع منا غدنا ، وليس هناك أمة من الأُمم تعيش بدون ماض وغد .

من هنا كان إيماننا بإحياء التراث الإسلامي ، ومن هنا كان رجوعنا إلى هذه الذخائر التي تركها لنا الآباءُ ميراثاً على الزمن ، وإنه لخير لنا أن ننفق من ميراثنا ، وأن نجعل منه رصيداً نزيد عليه ، ونُنَمّيه ، بدلا من أن نستجدي الأغنياءَ بالمعرفة والحضارة اليوم ، لماذا نتسول المعرفة وعندنا منها زاد لا يفنى ؟ لماذا نعيش فقراءَ ونحن الأغنياءُ في كل شيءٍ ؟ لماذا ؟ ـ نحن لا ننادي بأن نترك علم الآخرين لهم ، وإنما ننادي بأن نجعل من علم آبائنا أساساً لمعرفتنا وحضارتنا ، ثم نضيف إلى ذلك كل جديد ونافع من علوم غيرنا ، هكذا فعل آباؤُنا من قبل ، وهكذا يجب أن نفعل اليوم .

إنَّ التراث الإسلامي ذخيرة غنية برصيد من الفكر والرَّأي والعلم لا مثيل له ، وعلينا أن نرجع إلى هذه الكنوز ، لنزيل عنها غبار النسيان ، وضباب الزمن ـ ولنخرجها إلى الدنيا مجلوة زاهية ناضرة حية كما هي في جوهرها وحقيقتها . وإن خير مافي هذا التراث جانبه الروحي المشرق بصفاءِ اليقين ونور الإيمان ، وخير ما في هذا الجانب الروحي دراسات القرآن وعلومه ـ ونحن اليوم أحوج الناس إلى هذا الجانب الروحي ، لنروي ظمأنا ، ونداوي جروحنا ـ أرواحنا ظمأى إلى نور الله ، ونور الله في كتابه وفي كتب الدارسين لكتابه . فليعقل العاقلون منا هذه الحقيقة .

لهذا كله عدنا إلى تراثنا ، واستخرجنا منه درة فريدة غالية ، وجوهرة ثمينة نادرة ، هي هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى أبناءِ الإسلام في كل مكان ، وهو كتاب اجتمعت فيه عدة ميزات تجعله جديراً بالعناية والاهتمام .

فهو من كتب التراث التي أشرنا إلى أثرها في تحقيق غاياتنا وأهدافنا إذا وصلنا بها بين ماضينا وحاضرنا ، وجعلناهما درب طريق إلى الغد المأمول .

وهو كتاب يَشْرفُ بموضوعه ، وشرفُ العلم يكون على قدْرِ شرف المعلوم ، ويكفي أن موضوعه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وهو كتابُ واحدٍ من علماءِ الأندلس ـ الفردوس المفقود ـ يُرينا صورة صادقة لأمجاد أمتنا في هذه البقاع الغالية ويثْبِتُ لنا أن الحضارة العربية كانت دائماً حضارة علم ومعرفة ، وبحث ودراسة حيثما حلت ، وأينما كانت .

ومن توفيق الله أن تلتقي اليوم جهود مشرقنا العربي ، ومغربنا العربي على إخراج هذا الكتاب في ثوب قشيب من التحقيق والتدقيق والتعليق ، برغم ما بيننا من بُعْدِ الزمان والمكان ، وبرغم ما حاولته معنا أُمم الحضارة الحديثة من تمزيق لوحدتنا ، وتفريق لكلمتنا ، وتشتيت لجموعنا ، وتشكيك في إرادتنا وعزيمتنا ـ على مدى قرون وقرون .

ولكن ، ها نحن أُولاء نعود ـ نعود من جديد كما كنا : أُمة واحدة ، فِكْرُها واحد ، وأملها واحد ، ومنهجها في الحياة واحد ، وهو منهج الحق والخير والكمال ، ذلك لأن الماضي يجمع بيننا ، والحاضر يوثق من صلاتنا ، والمستقبل يمنحنا أقوى ما في الحياة ـ يمنحنا الأمل في أن نصبح قوة مؤثرة في تاريخ الإنسانية ، عاملة في سبيل الرخاء والأمان والسلام لكل أبناء البشرية .

لقد التقت رغبة صاحب السمو :

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر المفدى

ورغبة أخيه :

حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية

التقت الرغبتان في ميدان العلم والشرف على إخراج هذا الكتاب ، وتقديمه هدية إلى أبناء الأُمة الإسلامية ، هدية غالية بهيَّة الرُّواء ، سنيَّة الإشراق ، وتَذْكِرَةً لِفِكْرٍ من تراث الأندلس العظيم . .

والتقت في رعايتهما وبتأييدهما نخبة من رجال العلم في المغرب العربي ، وفي المشرق العربي لتحقيق هذه الرغبة السامية ، خدمة للأُمة الإسلامية في حاضرها ، ومستقبلها ، وخدمة للقرآن العزيز الذي كان ولا زال مرشدها ، وهاديها ، ومجدد شبابها على مَرِّ الأيام .

ونتيجة لهذه الرغبة السامية ، ولهذا اللقاء الأخوي بين علماء المغرب والمشرق في الأُمة العربية الناهضة كان هذا السفر الذي نقدمه بكل فخر واعتزاز ، آملين من ورائه أن يكون لنا عند الله ذخراً ، وأن يكون لأُمتنا زاداً من المعرفة والخير .

وقد اشترك في تحقيق هذا التفسير والتعليق عليه ، وإخراجه في هذه الصورة المشرقة :

من المغرب العربي:

الأستاذ : الرحالي الفاروق

رئيس المجمع العلمي بمراكش.

ومن المشرق العربي :

الشيخ : عبد الله إبراهيم الأنصاري

مدير الشؤون الدينية بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

الأستاذ : السيد عبد العال السيد إبراهيم

رئيس التوجيه التربوي بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

الأستاذ : محمد الشافعي صادق

م. مدير شؤون القرى بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر .

والله يشهد أن المهمة كانت شاقة وعسيرة ، فالمخطوط قديم ، وكتابته كانت في صورة بعيدة عن الخط العربي المألوف لنا في هذه الأيام ، والنسخ المتوفرة لدينا قليلة في مجال التحقيق والتمحيص . كانت المهمة لهذا صعبة ، تقصر دونها الهمم ، وتعجز عنها العزائم ، لكن الرغبة في خدمة كتاب الله العزيز تُهوِّن كل صعب ، وتُيَسِّر كل عسير ، فخير ما في حياتنا هو كتاب الله ، وخير أعمالنا هو ما اتصل بهذا الكتاب .

والدارسون للتراث العربي يعرفون أن هذا الكتاب قد نال من العناية ما هو جدير به ، وليس هناك من كتاب نال من اهتمام العلماء والمحققين ما ناله القرآن الكريم ، ولقد أقبل عليه العلماء ، واتصلت به الجموع بعد الجموع على الرَّغم من تنوع المعارف ، واختلاف المذاهب ، ولقد ظل مقصد الباحثين من رجال التفسير والتأويل ، وأرباب الفصاحة واللغة ، ورواة الحديث والآثار ، والدارسين من رجال الفقه والأحكام ، والعلماء من أهل الفلسفة والكلام ، وسيظل إلى الأبد : موْئل كل قاصد ، وغاية كل باحث ، ومرجع كل دارس ، وأمل كل عالم ، ونهاية كل طالب ، وريّ كل ظامىء ، وشبع كل جائع ، إنه مائدة الله ، وقد التقينا على هذه المائدة فكانت لنا خير زاد .

وعملنا هذا جهد متواضع ، نسهم به في خدمة كتابنا العزيز ، ونقدمه بين أيدينا إلى ربنا ، تكفيراً عما قدمنا من ذنوب ، وستراً لما فينا من عيوب ، ونسأله سبحانه أن يجعله : بريئاً من كل نقيصة ، صافياً من كل شائبة ، خالصاً من كل شبهة ، محققاً لغايته ، موصلاً لأهدافه ، نافعاً لكل راغب في البحث والدراسة والعلم .

وسنقدم لك بعد هذا أيها القارئ العزيز :

ـ تعريفاً موجزاً بمؤلف هذا التفسير ـ القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي .

ـ وتوضيحاً لمنهجه في التفسير والتأويل ، مع بيان قيمة هذا التفسير ومنزلته بين كتب التفسير الأخرى .

ـ ثم فكرة موجزة عن الخط الذي سرنا عليه في عملنا ، والجهد الذي بذلناه ليخرج لك هذا الكتاب في صورة نرجو ـ إن شاء الله ـ أن تكون دقيقة ناضجة مشرقة .

وما ندعي لأنفسنا الكمال . فما نحن إلا بشر من الناس ، تجري علينا سنة الله في خلقه ، فيثبت منا القلم أو يزل ، ويحضر منا الفهم أو يغيب ، ويصاحبنا التوفيق أو يجانبنا ، فليكن القارئ معنا على هذه القاعدة ، حتى يتقبل منا هفواتنا ، ويغفر لنا زلاتنا ، والله من وراء القصد ، يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التعريف بالمؤلف

نسبه :

هو الإمام القاضي ، والفقيه الحافظ ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية ـ الداخل إلى الأندلس ـ ابن خالد بن خُفاف المحاربي ، صاحب هذا التفسير العظيم :

(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)

وهو التفسير الذي أجمع المؤرخون والعلماءُ على أنه غاية في الصحة والدقة ، ونهاية في التنقيح والتحرير ، وإن ذلك لهو أصدق دليل على إمامة هذا العالم الكبير وأمانته ، وعلى وعيه وفهمه وفطنته .

ولقد اختلف المؤرخون في سلسلة نسبه ، ولعل السبب في هذا الاختلاف هو ميل بعضهم إلى الاختصار ، وميل الآخرين إلى الإطالة والتفصيل ، حسب مقتضى الحال ، وأمثلة هذا الاختلاف كثيرة نكتفي منها بأمثلة قليلة :ـ

ـ قال أبو حيان رحمه الله في الصفحة التاسعة من الجزء الأول من تفسيره :

« هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي » ا هـ .

ـ ولكنه عاد في الصفحة العاشرة فقال :

« ولد أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية المحاربي من أهل غرناطة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بِلُرْقَة ـ وتوفي في الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . هكذا ذكره القاضي ابن أبي حمزة » ا هـ .

ـ وقال ابن فرحون في كتابه «الديباج المذهب» : «عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن أسلم بن مكرم المحاربي ـ يكنى أبا محمد ، من ولد زيد بن محارب . ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة» ا هـ .

ـ وفي «بغية الوعاة» للحافظ السيوطي :

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم ـ وقيل عبد الرحمن ـ بن غالب بن تمام ابن عبد الرؤوف بن تمام بن عطية الغرناطي ، صاحب التفسير ـ الإمام أبو محمد» ا هـ .

ـ وفي «بغية الملتمس» لابن عميرة الضبي :

«عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله ابن تمام بن عطية بن مالك بن عطية بن خالد بن خُفاف بن غالب بن عطية المحاربي ـ أبو محمد» . ا هـ .

ـ وفي «المعجم» لابن الأبار :

«من اسمه عبد الحق ـ عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية ـ الداخل إلى الأندلس ـ بن خالد بن خُفاف المحاربي ـ كذا نسب ابن بشكوال (غالبا) جد والده ، وإنما هو : غالب ابن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل ـ بن خالد بن خُفاف بن أسلم بن مكرم المحاربي ، محارب قيس ـ أبو محمد ـ من أهل غرناطة» . ا هـ .

ومن هنا يظهر لنا أن الاختلاف في نسبه يتناول بعض أجداده ، وبخاصة جد والده . أهو عبد الرؤوف أم تمام بن عبد الرؤوف ؟ ويتناول اسم جده ـ أهو عبد الرحمن أم عبد الرحيم ؟ ويتناول اسم جده الداخل إلى الأندلس أهو عطية بن مالك أم عطية بن خالد ؟

ـ وصاحب «بغية الملتمس» ص ٣٧٦ هو الذي ذكر من أجداده (عطية بن مالك) ، ثم (عطية بن خالد المحاربي) ، وزاد بعض المؤرخين في السلسلة أن خُفاف هو (ابن أسلم ابن مكرم المحاربي) ، وأن (عطية الداخل) هو والد خالد وليس ابنه ، معترضاً بذلك على ابن بشكوال .

على أن الذي نرتاح إليه هو ماجاء في نسخة خطية من تفسير ابن عطية موجودة في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وجاء في صفحتها الأُولى :

«قال الشيخ الفقيه ، الإمام الأَجل ، الحافظ الأَكمل ، القاضي الأَعدل ، أَبو محمد عبد الحق بن الفقيه الحافظ أَبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤُوف ابن تمام بن خالد بن عطية ـ وهو الداخل إلى الأَندلس ـ ابن خالد بن خُفاف بن أَسلم ابن مكرم المحاربي من ولد زيد بن محارب بن خصفة (١) بن قيس عيلان . منْ أَهل غرناطة» .

ويتفق مع هذا المصدر ما جاء في «الديباج المذهب» ، وفي «المعجم» لابن الأَبار ، ويظهر من هذه المصادر الثلاثة :

ا ـ أَن نسبه الحقيقي هو ما رجحناه ، وأَن أُسرته كانت ذات مكانة ملحوظة في غرناطة.

ب ـ أَنه عربي الأَصل ، ومن قبيلة عدنان ، لأَن قيس بن عيلان هو : «إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان» .

أَما تاريخ ميلاده فقد أَجمع المؤرخون على أَنه كان سنة (٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) (٢) لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاته .

ـ فأَبو حيان يقول : «توفي في الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وأَربعين وخمسمائة ـ هكذا ذكره القاضي ابن أَبي حمزة» .

ـ وفي «الأَعلام» للزركلي ٥٣/٤ أَنه توفي سنة ٥٤٢ هـ ـ ثم يقول : «وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و ٥٤٦ هـ» .

ـ وفي «بغية الملتمس» ص ٣٧٦ . أَنه توفي سنة ٥٤٢ هـ . وقيل : سنة ٥٤١ هـ .

---

(١) خصفة : (بالخـــاء المعجمة ، وتقديم الصـــاد على الفاء) كما في (الديبـــاج) وفي (لسان العرب) هي قبيلة من محارب . أما في (الإحاطة) فقد وردت الكلمة (حفصة) بالحاء المهملة وتقديم الفاء على الصاد .

(٢) بغية الملتمس (ص ٣٧٦) والديباج المذهب (ص ١٧٥) وكشف الظنون (٥٢٣/٢) وبغية الوعاة (ص ٢٩٥) والأعلام (٥٣/٤) ونفح الطيب (٢٨٠/٣) .

ـ وفي «المعجم» لابن الأبار ص ٢٩٥ . أنه توفي في منتصف رمضان سنة ٥٤١ هـ ، ثم قال : «وحكى ابن بشكوال وابن خير أنه توفي سنة اثنتين وأربعين ، والأول قول ابن حميد ، وابن عياد ، وغيرهما ، وهو الصحيح»

ومن العجيب أن ابن بشكوال كان معاصراً له لكنه أخطأ في تاريخ وفاته ، كما أخطأ في سلسلة نسبه .

ـ وفي «الديباج المذهب» ـ ص ١٧٤ـ١٧٥ أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ بمدينة «لورقة» ، وأقرب الأقوال إلى الصواب ـ كما يبدو من اتفاق أكثر المراجع ـ هو القول بوفاته سنة ٥٤١ هـ .

نشـــأته وحيـــاته :

كانت نشأته علمية بكل معاني هذه الكلمة ، فقد ولد وتربى في بيت علم وفضل ، ولقد كانت أسرته أسرةً عربية كريمة ، جمعت بين أصلين من أصول التفوق ، وهما : عراقة الأصل ، وكرامة العلم .

ولقد قال «ابن فرحون» عن جدهم الداخل إلى الأندلس : «إنه نسل كثيراً لهم قدر وفضل» .

وفي «نفح الطيب» وصف لهذه الأسرة بأن رجالها من أعيان غرناطة .

ووالده هو : الإمام الحافظ ، أبو بكر غالب بن عطية ـ فقيه ، ومحدث ، وزاهد . أخذ عن أعلام الأندلس ، كالحافظ أبي علي الجياني الغساني ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩ هـ . وأخذ عن علمائه ، كأبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي . نزيل مكة ـ وفي رعاية هذا العالم الفقيه نشأ الوليد عبد الحق ، ولاغرابه أن يشبه الفرع أصله ، وأن يكون الابن مثل أبيه فضلا وعلماً .

بِأَبِهِ اقتـــــدى عليٌّ في الكـــــرم ومَنْ يُشَـــابِهْ أَبَه فمـــــا ظَلَمْ

كان الناس يفدون إلى رحاب والده ، فيتعلمون ، والوليد الصغير يرى ذلك كله فيتأثر به ، وينمو وجوُّ العلم وطلابه يحيط به ، فيتعلق بهذه الحياة العلمية ، ويدفعه

صورة لصفحة من النسخة التونسية المساعدة توضح آخر سورة البقرة وأول سورة آل عمران .

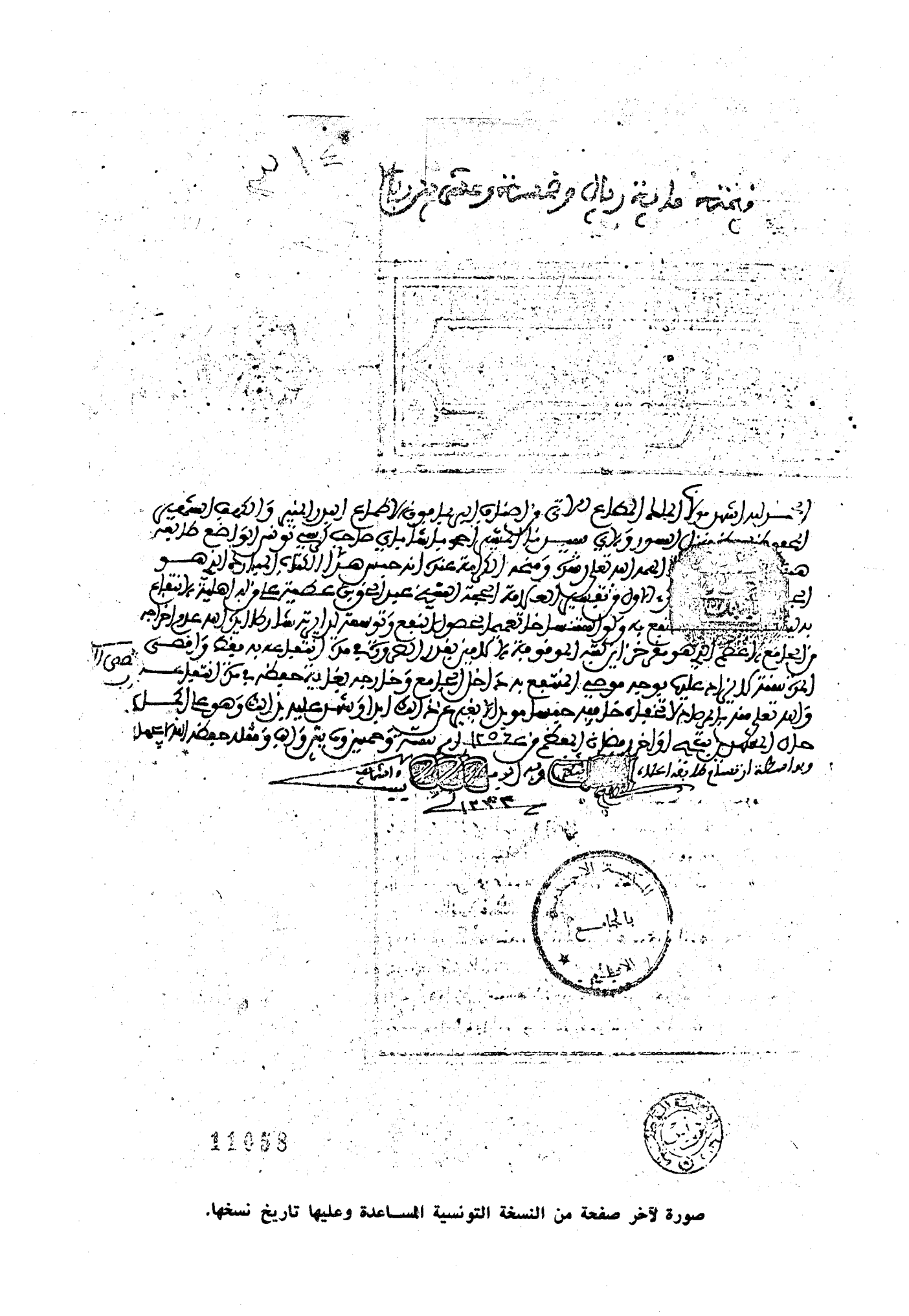

صورة لآخر صفحة من النسخة التونسية المساعدة وعليها تاريخ نسخها.

إليها طموح فطر عليه ، ويعينه على تحقيق رغباته رعاية واسعة من الوالد الفاضل ، الذي اختار له الأساتذة ، وساعده حتى في تأليف تفسيره .

فهو فرع في شجرة مورقة ، امتدت غصونها ، وكثرت أوراقها ، ونضجت ثمارها ، فأوى إلى ظلها كثيرون ، ونعم بخيراتها طلاب العلم في أماكن كثيرة .

ومن أساتذته أبو علي الغساني ، وأبو علي الصدفي ، وأبو محمد عبد الجبار بن سليمان ، والفقيه أبو محمد القيرواني ، وأبو جعفر بن القليعي . وغيرهم .

وكان رحمه الله غاية في الذكاء والدهاء ، شغوفاً بالتقييد ، واقتناء الكتب ، مولعاً باكتساب العلوم والمعارف ، ولهذا رحل إلى كل عواصم الأندلس وحواضرها ـ يلتقي بالعلماء ، ويأخذ عن الشيوخ ، ويراسلهم في كل مكان إذا عجز عن الالتقاء بهم ، وكان يسألهم الإجازة العلمية حتى كوّن نفسه أحسن تكوين .

هذه النشأة الأصيلة ، وهذه الرغبة القوية في التحصيل والتفوق ـ كانتا سبباً من أسباب نبوغه وشهرته ، واحتلاله مكانة عالية ، حتى عرفه القاصي والداني ، وأثنى عليه كل من عرفه ، أو اطلع على مؤلفاته وآثاره .

وكان ـ رحمه الله ـ من أفاضل أهل السنة والجماعة ، تولى القضاء بمدينة (المُرْيَة)(١) بالأندلس ، فتوخى الحق ، وعدل في الحكم ، وأعز الخطة ، ويذكر أنه كان قد قصد (مرسية) ليتولى قضاءها فصُدَّ عنها ، واعتُدِيَ عليه ، وصُرِفَ عنها إلى (لورقة)(٢) .

والدارس لحياة ابن عطية يجد فيها ألواناً من الجهاد في سبيل مجده ومكانته العلمية ، وفي سبيل أُمته وعقيدته . فقد جاهد في سبيل العلم حتى وصل فيه إلى أعلى مكانة ، وجاهد في ميدان القتال ضد أعداء الدين والوطن ، لأن أيام المرابطين كانت أيام معارك وحروب دامية ، وكان ابن عطية ممَّنْ حملوا السيف ، واشتركوا في كثير من الغزوات ، وكان يُكْثِر من التَّغَيُّب عن أهله وبلده ـ وكان والده قد كبر في السن ، وكف بصره ،

---

(١) مثل : (غُنْيَة) كما في القاموس . ولكن في معجم البلدان أنها بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء .

(٢) لورقة : بالضم ، حِصْنٌ بالمغرب ـ قاله في القاموس .

وقد طال غياب (عبد الحق) عنه في إحدى الغزوات مما أثار في نفس الشيخ الضرير نوازع الحنين والشوق ، وحرك في قلبه عواطف الأُبوة فكتب إليه أبياتاً كلها رقة وشوق وحنان ، ولمَّحَ له فيها إلى حاجته إلى رعايته ـ قال :

يا نازحَ الدار لم تحفِلْ بِمَنْ نَزَحَتْ ... دموعَه طارقــاتُ الهم والفكــر
غيّبْتَ شخصك عن عيني فما أَلِفَتْ ... من بعد مرآك غيْرَ الدمع والسهــر
قد كان أَولى جهاد في مواصلــتي ... لا سيَّما عند ضعف الجسم والكبــر
اعتلَّ سمعي ، وجال الضُّرُّ في بصري ... بالله كن أنت لي سمعي ، وكن بصري

ومع هذه العواطف الجياشة ، وأمام هذا النداء الأَبوي كان ابن عطية يتحمل كل شيء في سبيل أداء واجبه الديني ، وكان يتحمل في سبيل عقيدته ، لأَن الحروب كانت ضد أعداء الإسلام والمسلمين الذين تكالبوا على الأَندلس في فترة خطيرة من فترات العدوان على الإسلام .

وإلى جانب ذلك جاهد بقلمه ، وكتب رسائل إلى بعض الأُمراء يحثهم فيها على نجدة البلاد التي احتلها الأَعداءُ ، ويُهيب بهم أن ينقذوا الأَبرياءَ من الناس من ظلم الغزاة ، وقسوة المعتدين . وكان دائماً يحث على الجهاد المقدس ، ويلهب الحماس في النفوس بما يُضَمِّنُهُ رسائلَهُ من أشعار حماسية ، يترنم فيها بالبطولات .

بكل هذا الذي أشرنا إليه ـ من بحث عن العلم وسعي إليه ـ ومن حب للمعرفة واقتناء الكتب ـ ومن جهاد في سبيل دينه بقلمه وسيفه ودمه ـ استطاع ابن عطية أن يصل إلى مكانة كبيرة في مجتمعه . وانتهى به الأَمر إلى تولي القضاء ، وللقضاء آنذاك منزلة عالية ، ولم يكن يتولاه إلا من هو أهل له علماً وفضلا وخلقاً .

ومما يُرْوَى عنه أنه حين تولى قضاء (المرية) دخل على أهله الدار وعيناه تدمعان تأثراً لمفارقة الوطن والولد ، ورأته ابنته (أم الهناء) على هذه الصورة فأنشدت متمثلة :

يا عين صار الدَّمْعُ عندك عــادةً ... تبكين في فرحِ وفي أحــزان

وهذا يدل على أنه أثر في أهل بيته ، وحملهم على حب الشعر ، والاستشهاد به .

ولم يعرف عن ابن عطية أنه تولى قضاء مدينة أخرى غير (المرية) إلا أنه فيما رُوي قصد (مرسية) ليتولى قضاءها فَصُد عنها إلى (لورقة) - كما ذكرنا من قبل - لكن (المقري) في كتابه «نفح الطيب» ذكر أنه قصد إلى (ميورقة) بدلا من (مرسية)، إلا أننا نرجح أنه فعلا كان يقصد (مرسية) - وقد ظن (ابن سعيد) أنه تولى قضاء (غرناطة) - وهذا خطـأ، فالواضح أن الذي تولى قضاءها هو والده - أما هو فقد توفي بعد أن صدّ عن (مرسية) بوقت قليل، فلم تكن أمامه فرصة لأن يتولى قضاء آخر.

مـــكانته :

على الرغم من أن تفسير ابن عطية لم يطبع إلى اليوم فإن الرجل كان صاحب مكانة علمية مرموقة في عصره، وبعد عصره، ولا نجد إجماعاً بين العلماء والشيوخ كإجماعهم على تقديمه، وكلهم يعترفون بفضله، ويجعلونه صاحب مدرسة في التفسير - وهذه هي بعض الآراء التي قيلت فيه ننقلها كما ذكرها أصحابها :

- أثنى عليه (أبو حيان) صاحب «البحر المحيط»، ورجَّحَه على غيره كما جاء في «كشف الظنون» : «أثنى عليه أبو حيان، وقال : هو أَجَلُّ من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير».

- وقال عنه (الزركلي) في «الأعلام» : «مفسر، فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والأحاديث، له شعر، ولي قضاء المُرْيَة».

- وجاء في «بغية الملتمس» : «فقيه، حافظ، محدّث مشهور، أديب، نحوي، شاعر بليغ، كاتب، ألف في التفسير كتاباً ضخماً، أربى فيه على ما تقدم، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد، قرأ عليه جميعه بالمرية».

- وقال عنه (ابن الأبار) في «المعجم» : «أحد رجالات الأندلس الجامعين إلى الفقه، الحديث والتفسير والأدب - وبيته عريق في العلم».

- وجاء في «طبقات المفسرين» للسيوطي : «الإمام الكبير، قدوة المفسرين».

ـ وقال (ابن خاقان) في «قلائد العقيان» يصف علمه وفضله ، ويصور جانباً من هذه الشخصية الفريدة : «فتى العمر ، كهل العلماء ، حديث السن ، قديم السنا ، لبس الجلالة برداً ضافياً ، وورد ماء الأصالة صافياً ، وأوضح للفضل رسماً عافياً ، سما إلى رتب الكهول صغيراً ، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيراً ، فسباها معنى وفضلا ، وحواها فرعاً وأصلا ، وله أدب يسيل رضراضاً ، ويستحيل ألفاظاً مبتدعة وأغراضاً » .

ثم قال : « نبعة دوح العلاء ، ومحرز ملابس الثناء ، فذ الجلالة ، وواحد العصر والأصالة ، وقارٌ كما رسا الهضب ، وأدب كما اطرد السلسل العذب ، وَشِيَمٌ تتضاءل لها قطع الرياض ، وتبادر الظن به إلى شريف الأغراض ، سابَقَ الأمجاد فاستولى على الأمد بعبابه ، ولم ينض ثوب شبابه ، أدمن التعب في السؤدد جاهداً ، فتى تناول الكواكب قاعداً ، وما اتكل على أوائله ، ولا سكن إلى راحات بُكره وأصائله ، آثاره في كل معرفة عَلَمٌ في رأسه نار ، وطوالعه في آفاقها صبح أو منار » .

ـ وقال عنه (السيوطي) : «كان يتوقد ذكاءً» . وقال : «كان فاضلا من بيت علم وجلالة ، غاية في توقد الذهن ، وحسن الفهم ، وجلالة التصرف» .

آثـــاره وتلاميـــذه :

أهم ما يمتاز به ابن عطية هو تنوع الثقافة ـ ويعتبر فكره نتيجة لهذه الثقافة المتنوعة الغزيرة ـ ونوجز القول عن آثاره فيما يأتي :

١ ـ ألف كتابه العظيم في تفسير القـــرآن الكريم ـ وهو الذي عـــرف بين الناس باسم : « المحـــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ـ وقد أفردنا له فصـــلا خاصاً نوضح فيه منهجه وميزاته .

٢ ـ ينسب بعض الباحثين له مؤلفات أخرى ـ ومن هذه المؤلفات كتاب في (الأنساب) ينتقد فيه كتاباً لبعض المعاصرين ـ ذكر ذلك (ابن الأبار) في كتابه «المعجم» ـ ومنها كتاب صغير اسمه (البرنامج) أو (الفهرسة) ـ ولا يزال مخطوطاً ، وقد ترجم فيه لشيوخه الذين أخذ عنهم ـ وأولهم والده (غالب بن عطية) .

وعلى كل فمؤلفاته قليلة ، ولعلها قد ضاعت بفعل الزمن ، وبسبب الأحداث التي توالت على بلاد الأندلس .

٣ – ومن آثاره أشعار جيدة ، ورسائل لاتقل عنها جودة . وقد روى (ابن خاقان) ، من شعره مايدل على تمكن . ومن ذلك قوله :

وليلةٍ جُبْتُ فيها الجزعَ مُرتديـــــاً بالسيف أسحبُ أذيالا من الظُّلَـــم
والنجمُ حيرانُ في بحر الدجى غَرقٌ والبرق في طيلسان اللَّيل كالعـــلم
كأنمـــا الليلُ زَنْجِيٌّ بكاهـــله جُرْحٌ فيثعب أحياناً له بِـــــدَم

ومن شعره قوله يندب عهد شبابه :

سقياً لعهد شباب ظلْت أمرح في ريعانه ، وليالي العيش أسحـــــارُ
أيام روض الصبا لم تذو أغصـــنه ورونق العمر غضٌّ والهوى جـــارُ
مضى وأبقى بقلبي منه نار أســـى كُوني سلاماً وبرداً فيه يانـــــارُ

إلى أن يقول :

وقارعتني الليالي فانْثَنَتْ كِسَـــراً عن ضيْغَمٍ ماله ناب وأظفـــارُ
إلا سلاح خلال أُخلصت فلهـــا في منهل المجـد إيرادٌ وإصـــدارُ
أصبو إلى خفض عيشٍ روضُه خضِلٌ أو ينثني بي عن العلياء إقصـــارُ

وهو شعر واضح الجودة ، ويدل على قدرة لغوية ، لكنه بالقطع لا يجعله واحداً من الشعراء المعروفين ، بل هو أقرب إلى النظم ورصف الكلمات دون التعبير عن المشاعر الجياشة في عبارات عذبة رقيقة سلسة – ومع هذا فحسبه أنه برز في ميادين اللغة والأدب ، والقراءات والفقه ، وأضاف إليها القضاء ومكانته .

أما تلاميذه فهم صفوة من العلماء والشيوخ ، ولقد انتفع بعلمه خلق كثير وكان مَقْصداً يفِدُ إليه الطلاب ، ومن أشهر تلاميذه :

– الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن حبيش .
– الإمام أبو بكر محمد بن أبي حمزة المرسي .

ـ الإمام أبو جعفر أحمد بن مضاء اللخمي .

ـ الإمام أبو بكر محمد بن خير الأشبيلي .

ـ الفليسوف أبو بكر بن طفيل القيسي صاحب رسالة (حي بن يقظان) المشهورة .

وللحقيقة وحدها نقول :

إن ابن عطية كان نابغة بمقاييس النبوغ في عصره لأنه أحاط بكل العلوم المعروفة في زمانه ، وكان على جانب كبير من الثقافة وتنوع المعارف . وقد أهّلَهُ ذلك لسُمْعَة علمية ظلت باقية على الزمن ، حتى وصلت إلينا مع آثاره وعلى يد تلاميذه .

وهكذا كان ابن عطية عَلَماً في حياته ، وعَلَماً بعد وفاته .

مَنْهَجُهُ فِي ٱلتَّفْسِيرِ :

هذا التفسير الذي نعتز بتقديمه اليوم إلى الباحثين والدارسين والراغبين في المعرفة من أبناء الناطقين بالضاد، هو المعروف بين الناس باسم «تفسير ابن عطية»،وهو كما عرف بين أصحاب الدراسات القرآنية : «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» .

ولقد ظل هذا التفسير حبيساً في مخطوطاته قرابة ألف عام إلا قليلا ، وظل الناس يتشوقون إليه بعد أن عرفوه من خلال دراساتهم لكتب التفسير المختلفة . حتى شاء الله أن تجتمع الهمم ، وأن تتضافر الجهود ليخرج إلى الوجود في هذا الثوب الرائع المشرق إن شاء الله .

والحديث عن التفسير والمفسرين حديث طويل ، يمكن فيه أن نتتبع مناهج البحث ، وطرق العرض والتأويل عند الكثيرين ، لكن هذا يخرج بنا عن الغاية التي قصدنا إليها في هذا التعريف. فنحن نريد أن نوضح المنهج الذي وضعه ابن عطية لنفسه حين وجهها لهذا العمل الجليل ، ونريد أن نبين مدى التزامه بهذا المنهج طوال عمله الذي استغرق منه ـ كما يقول ـ صفوة عمره ، وبعد ذلك نتحدث عن منزلة هذا التفسير وقيمته في مجال خدمة القرآن ، وآراء العلماء والباحثين فيه ، وما كان له من أثر في المفسرين وأصحاب علوم القرآن من بعده .

والحقيقة أن ابن عطية قد وضع لنفسه منذ البداية منهجاً كاملا ، ورسم لها طريقاً واضح المعالم ، وحاول دائماً أن يكون ملتزماً ، وأن يسير في حدود هذا الطريق . ولم يخرج ـ فيما رأينا ـ عن منهجه إلا في مواقف نادرة ، وهي ـ لندرتها ـ لا تعتبر إخلالا منه بمنهجه ، ولكنها طبيعة البحث الذي يمتد مع صاحبه سنوات طويلة ، تتغير فيها الظروف والملابسات ، وربما حُمل الباحث على الخروج بعض الشيء عن الخطوط التي رسمها لنفسه،وهذا أمر مقبول في عصر كان البحث العلمي فيه يعتمد على مجرد جهد

فردي ، وذاكرة واعية ، وحافظة لاقطة ، وكان التدوين يستند إلى قدرة فردية ناضجة ، ولكنها ـ مهما كانت ـ ليست كافية لتحديد المعالم ، والتزام المنهج . ونحن اليوم نعتمد على أُصول ومدونات ومخطوطات مصورة ، ومراجع لا حصر لها ، وأشرطة وأفلام مسجلة ، نعتمد على ذلك وعلى أكثر منه عند القيام بالبحوث العلمية ، ويضاف إليه تعاون ومشاركة بين كثير من الجهود ، ومع ذلك يَنِدُّ بنا القلم أحياناً أو يضل ، ويغرب عن الفكر ما هو في حاجة إليه من التدقيق ، فما بالنا بهؤلاء العلماء الذين اعتمدوا على أنفسهم ، وعلى بعض مخطوطات من الكتب القليلة ؟ ألحق أن جهودهم تستحق كل تقدير وإعجاب .

وميزة ابن عطية لا تقف عند وضع منهج كامل ، أو تخطيط دقيق لعمله عندما أقبل على تفسير القرآن الكريم ، بل ميزته في أنه ـ إلى جانب ذلك ـ كان رائداً في هذا المجال ، رسم للمفسرين من بعده طريقة مثلى ، ووضع لهم خطة منهجية دقيقة ، وجعل من التفسير عِلْماً يستند إلى قواعد ومبادئ قائمة على الدقة والاستقصاء والترتيب وحسن العرض .

أسس المنهج :

ونحن لا نتكلف حين نحاول توضيح منهج ابن عطية في تفسيره ، لأن الرجل حدثنا بنفسه عن منهجه هذا في مقدمة تفسيره ، وهذه هي أهم الخطوط والأُسس التي رأينا أن نشير إليها في هذا المجال :

أولا : بدأ بالاستعداد لهذا العمل الكبير ، فهو يرى أنه يجب على كل من يريد أن يدخل ميدان التفسير أن يأْخذ من العلوم كلها ، وأن يُعد نفسه إعداداً علمياً كاملا حتى يكون أهلا لهذه المهمة الجليلة ، لأنها فوق طاقة الإنسان العادي ، يقول : «إني لما رأيت العلوم فنوناً ، وحديث المعارف شجوناً ، وسلكت فإذا هي أودية ، وفي كلٍّ للسلف مقامات حسان وأندية ، رأيت أن الوجه لمن تشزَّن (١) للتحصيل ، وعزم على الوصول أن يأْخذ من كل علم طرفاً خيارا ...» ثم يقول: «إنه حرم نفسه النوم والراحة حتى يرتقي هذا النجد ، ويبلغ هذا المجد ، ثم جرى في هذا المضمار حتى تصبب عرقاً ، وحاز من العلوم ما قسم له».

(١) تَشَزَّنَ : تَهَيَّأَ واستعد .

فقضيته الأُولى هي كثرة المعارف ، ولهذا توزع الناس فنال كل واحد نصيباً ، وعلى الباحث أن يأخذ من كل طرف بمقدار ـ وقد أنفق هو صدر عمره في ذلك حتى وصل إلى ما يريد ـ وكانت هذه هي خطوته الأُولى .

أما خطوته الثانية فكانت اختيار علم واحد من علوم الشرع ، يستنفد فيه كل طاقاته ، ويُحَصل فيه كل ما يستطيع ، «حتى يضبط أُصوله ، ويُحكم فصوله ، ويلخص ما هو منه أو يؤول إليه ، ويفي بدفع الاعتراضات عليه» . و «حتى يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد ، والذخر العتيد ، يستندون فيه إلى أقواله ، ويحتذون على مثاله»

وقد رأى أن يختار علم كتاب الله ، لأنه « هو العلم الذي جعل للشرع قواماً ، واستعمل سائر المعارف خداماً» ، «وهو عنصرها النمير ، وسراجها الوهاج ، وقمرها المنير» .

وهكذا ، استعد ابن عطية لعمله ، وتزود من العلوم كلها بزاد ، ثم تفرغ لعلم واحد منها هو تفسير كتاب الله ، وتفرغ له طول عمره ، «فثنيتُ إليه عنان النظر ، وأقطعتُه جانب الفِكَر ، وجعلتُه فائدة العمر» .

لكنه حين مضى في الشوط طويلا ، رأى أن مافيه من معارف ونكت وفوائد ، تغلب قوة حفظه ، وأنه عاجز عن أن يحتفظ بها في ذهنه ، ففزع إلى كتابة ما يصطفيه من الآراء ويختاره . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه اعتمد على كثير من المصادر في أهم العلوم التي رأى أن تكون موضع اهتمامه وعنايته في تفسيره ، وهي :

كتب التفسير : واعتمد منها على : تفسير «الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري» المسمى : «جامع البيان في تفسير القرآن» ـ وتفسير «أبي بكر محمد بن الحسن ـ النقاش» المسمى «شفاءُ الصدور» ـ وتفسير «أبي العباس أحمد بن عمار المهدوي» . المسمى «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل ، الجامع لعلوم التنزيل» ـ وتفسير «أبي محمد مكي بن أبي طالب» ـ وهو مخطوط كبير مفقود ، وغيرهم من أئمة التفسير .

كتب القراءات : ونخص بالذكر منها كتب أبي عمر الداني وهي كتب كثيرة ـ وكتاب «الحجة» لأبي على الفارسي، وكتاب «المحتسب» لأبي الفتح بن جني .

كتب اللغة والنحو : واعتمد منها على كثير من الكتب ، وبخاصة كتب ـ الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي علي الفارسي ، والفراء ، والزجاج ، والمبرد ، وثعلب .

وإلى جانب ذلك اعتمد على كتب كثيرة في (الحديث) ، مثل «البخاري ، وصحيح مسلم ، والترمذي ، والنسائي» .

وفي (**الفقه**) : اعتمد على الموطأ للإمام الكبير مالك بن أنس ، وعلى غيره من كتب الفقه في المغرب ، وبخاصة فقه المالكية .

وفي (**التوحيد**) : رجع إلى كتب القاضي أبي بكر الباقلاني ، وكتب الأشعري والجويني .

وهكذا رجع ابن عطية في كل علم إلى أهم مصادره الأصيلة ، على أن اعتماده على هذه الكتب لم يكن اعتماد الناقل فقط ، وإنما كان يذكر آراء المؤلفين والعلماء ، وينسب الرأي لصاحبه في أكثر الأحيان ، وقد يذكر الرأي ولا ينسبه في بعض الأحيان ـ ثم يناقش الآراء إذا لم يكن موافقاً عليها ، ويُثْبِتُ مايراه فيها من قوة وصحة ، أو من ضعف وشذوذ ـ فشخصيته واضحة في كل ما نقله أو علق عليه .

ثانياً : الأساس الثاني في منهج ابن عطية أنه جعل من تفسيره كتاباً «جامعاً لكل العلوم» وقد أراد بهذا أن يجعل التفسير في المقام الأول بين علوم العربية ـ فهو ليس علماً مثل غيره ، بل هو قمتها ، وفيه كل ما فيها .

فيه ـ إلى جانب المعاني ـ اللغة والنحو ـ والقراءات والفقه ، والأحاديث وعلم الكلام . وكأنما كان يهدف إلى «التفسير الجامع» ـ مع الدقة والتركيز ، فإذا كان بعض المفسرين قد اهتموا باللغة ، وبعضهم قد اهتم بالأحكام ، وبعض ثالث قد أكثر من مسائل الفلسفة وعلوم الكلام ، إلى غير هذا من الاتجاهات ـ فإن ابن عطية قد جمع كل ذلك في تفسيره .

ولقد نتبه لهذه الحقيقة صاحب «كشف الظنون» حين تحدث عن المفسرين قبل ابن عطية فقال :

«ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم ، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب عليه طبعه من الفن» ، ويضرب الأمثلة لذلك حين يقول : «فالنحوي تراه ليس له إلا الإعراب ، وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة ، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجّاج والواحدي في البسيط ، وأبي حيان في «البحر والنهر». والإخباري ليس له شغل إلا القصص ، والإخبار عمن سلف ، سواء كانت صحيحة أو باطلة ، والفقيه يكاد يسرد الفقه جميعاً ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تَعَلُّق لها بالآية أصلا ، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي . وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة» (١)

وهو ينتقد هؤلاء جميعاً وغيرهم من المبتدعين قائلا : «كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لاغير مع أن فيه تبيان كل شيء» .

ولم يكن صاحب «كشف الظنون» وحده هو الذي تنبه إلى هذا العيب في أساليب المفسرين ، لكنه كان واضحاً عن غيره في ذكر ما أراد ـ وهذه حقيقة يراها كل من له صلة بعلم التفسير ـ وفضلا عما ذكره من أن في القرآن تبيان كل شيء ، فإن الباحث عن تأويل آية يحتاج إلى أن يرجع إلى أكثر من تفسير حتى يستطيع أن يعرف الحقائق كلها من قراءات ولغة وحكم وفقه ... الخ .

من هذا تتضح لنا القيمة الكبرى لمنهج ابن عطية ، الذي جمع في تفسيره كل شيء دون أن يطغى جانب على جانب ، ودون أن يُطيل إطالة مملة ، وبهذا أجاد وأفاد .

ثالثاً : رأى ابن عطية أن يسقط القصص التي ملأت كتب المفسرين قبله . وهذه نقطة جديرة بالنظر والتقدير ؛ فلقد امتلأت كتب التفسير بأقاصيص لا سند لها ، ولا داعي إليها لأن فهم الآيات لا يتوقف عليها . والقضية هنا قضية كبيرة ، هي قضية الإسرائيليات التي تعتمد على الأساطير المتناقضة والخرافات الزائفة ، والتي تسربت إلى كتب التفسير لأسباب شتى ، ليس هنا مجال الحديث عنها .

---

(١) كشف الظنون (١/٢٢٨) .

وابن عطية صاحب فضل كبير في هذه القضية ، لأنه أعرض عن ذكر أكثر هذه القصص ، بل لقد عاب على المفسرين قبله عنايتهم بها ، وبخاصة ابن جرير الطبري ، وإذا ذكر ابن عطية واحدة من هذه القصص فإنه يرويها بصيغة التضعيف ، أو يقول : ومن قصص هذه الآيات . وقد يُظهر مافيها من زيف ، وهو عادة لايذكرها إلا عند الضرورة إذ قد تحتاج الآية إليها في نظره ، وكثيراً ما تراه يقول : «وهناك قصص أُخرى أعرضت عن ذكرها لضعفها » . وقد وَضَّحَ هو مذهبه في هذا فقال : «لا أذكر من القصص إلا ما تَنْفَكُّ الآية إلا به» ، والأمثلة على ذلك كثيرة ستجدها في التفسير متكررة بصورة تدل على نفور الرجل من الإسرائيليات في وقت كانت فيه مسيطرة على فكر المفسرين .

وقد عرف العلماءُ لابن عطية هذا الفضل وقدروه حقَّ قدره ، وأولهم العلامة ابن خلدون ـ قال في نهاية حديث له عن الإسرائيليات : «فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخَّص تلك التفاسير كلها ، وتحرى ماهو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب مُتَداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى » .

فابن عطية ـ بهذا ـ باحث علمي بمعنى الكلمة ، يحقق ويدقق ، ويختار صحيح الروايات ، ويترك ضعيف الأسانيد البعيدة عن العقل والدين ، وعمله في زمنه عمل جدير بكل الإعجاب والتقدير .

رابعاً : يتَّصل بما سبق من ميله إلى الدقة والتحقيق أنه كان يقف من آراء العلماء في المعاني موقف الناقد ، فهو لايثبت من أقوالهم هذه إلا ما نُسب إليهم على الأُصول التي تَلَقَّى بها السلف الصالح كتاب الله تعالى ، وهي أُصول بريئة من إلحاد أهل القول بالرموز ، نقية من كلام أهل القول بعلم الباطن ، قال : « وأَثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تَلَقَّى السلف الصالح رضوانُ الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية ، السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز واللغز ، وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم ، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نَبَّهتُ عليه» . وهذا خير ما يمكن أن يَصْنعه باحث في كتابه ـ بل هو من أهم صور التحقيق والتمحيص العلمي ، وكم رأينا علماء أجلاء

يُفسرون كتاب الله ، ولا يتورعون عن نقل كل كلام يعرض لهم دون تمحيص أو تحقيق ـ أما ابن عطية فمبدؤه الأول أن ينقل الآراء ـ حين ينقل ـ منسوبة إلى العلماء على الأُصول السليمة ، إيماناً منه بأن كتاب الله لابد أن يبقى في معانيه صافياً نقياً.

ويزيد من دقته وأمانته حين يقول ، إنه إذا وقع له رأْي منسوب إلى واحد من العلماء الذين يحسن الظن بهم ، أو ثبتت ثقته بهم ، وليس عليهم مطعن في عقيدة ، وكان في هذا الرأي شيءٌ من أغراض الملحدين ـ ذكره ، ونَبَّه عليه ـ فهي الأَمانة العلمية الكاملة ، وضعها ابن عطية هدفاً ثابتاً له ، والتزمه في تفسيره .

إننا حين نريد أن نعرف رأْي ابن عطية في إخراج ألفاظ القرآن عن ظاهرها ، والالتجاء إلى الرموز ، والمعنى الباطني ـ يحسن أن نرجع إلى عبارته لنراه يصف هذا العمل بأنه «إلحاد» ، والقرآن عنده كتاب بيان واضح ـ فليس فيه رمز ولا باطن ، الألفاظ فيه على المعنى الظاهر ، إن الهدى والإرشاد لا يُبْنَيَانِ على إلغاز وإبهام ، وإنما لجأ إلى هذا من يقصدون إلى أهداف بعيدة قد تضر بالدين ، بل هي في الحقيقة تعمل على هدم العقيدة الإسلامية التي امتازت بما فيها من وضوح ، وصدق ، والتقاء مع الفطرة ، ويكفي أن من أسماء القرآن الكريم . «الفرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وهذه التفرقة لاتأْتي مع اللبس والإلغاز والإبهام .

خامساً : ثم يأْتي الأَساس الذي يُعد صُلب المنهج وجوهره ، وقد حدده في قوله : «وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية ، من : حكم ، أو نحو ، أو لغة ، أو معنى ، أو قراءة » .

وفي هذا الأَساس عدة نقاط تحتاج إلى توضيح وبيان :

ا ـ أنه عندما يتعرض لتفسير آيات الكتاب الكريم ـ يذكر كل ما يتعلق بالألفاظ « على حسب ترتيبها » ، ولا ينتقل من أمر إلى غيره إلا بعد أن يستقصي مافيه من آراء ، ويذكر رأْيه إن شاء ، فهو حريص كل الحرص على أن يسير مع الألفاظ بالترتيب الذي وردت به في الآيات ، حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من المفسرين الذين لا يتتبعون الألفاظ بل ينتقلون بينها بدون ترتيب ، فإن هذا في نظره : «مُفَرق للنظر ، مُشَعبٌ للفكر» .

٢ ـ ومن هذا يتضح أنه كان صاحب قدرة على التنظيم والتنسيق وحسن العرض ، فهو لا يخلط بين نقاط البحث ، بل تراه ينشط للقول في المعنى حتى إذا انتهى مما يريد ، ووفَّى النقطة حقها من البحث ، انتقل إلى الإعراب ، فإذا مافرغ منه تكلم عن القراءات ، ولا نقول : إنه يلتزم الترتيب الذي ذكرناه ، بل نقول : إنه كان يراعي الترتيب والتنسيق ، فلا تجد في كلامه اضطراباً ، بل هو النظام ، وحسن العرض ، وتوفية كل نقطة حقها قبل الانتقال إلى غيرها ، مما نراه نادراً في كلام المؤلفين في عصره .

٣ ـ قلنا إنه جمع بين مختلف الفنون والعلوم ، ولكنه ميز بين هذه العلوم ، فلم يعطها قدراً واحداً من العناية ، بل نراه قد عُني بالنحو واللغة أشد العناية ، وأصبح تفسيره بهذا حجة في هذا الميدان ، والحق أن أهم الأركان التي يجب أن تنال عناية المفسرين هي «اللغة العربية» بما فيها من إعراب للكلمات ، وبيان لمواقعها ، وتوضيح للاتصال بينها ، وتصريف للمشتقات منها . وكل من قصد إلى تفسير القرآن بغير هذا السلاح فهو بعيد عن التحقيق والدقة والفهم السليم ، ولهذا ترى ابن عطية يخصص في مقدمته باباً عنوانه : «باب في فضل تفسير القرآن ، والكلام على لغته ، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه» . وقال في هذا الباب : «إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع» ، وهو يؤكد أن الإعراب هو الفهم الدقيق ، ويَرْوي في ذلك الأحاديث والآثار ، ومن ذلك ما رواه من قوله صلى الله عليه وسلم : (أعربوا القرآن ، والتمسوا غرائبه ، فإن الله يحب أن يُعرب) . وابن عطية يرى أن الصلة وثيقة بين الفهم للقرآن ، وبين الإدراك الصحيح لأشعار العرب ، ولهذا يروي كثيراً جداً من الشواهد العربية ليدلل بها على فهمه للمعاني ، وعلى إعرابه للمفردات ، وعلى بيان ما يرى من اشتقاق وتصريف ، ويروي عن ابن عباس أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أي علم القرآن أفضل ؟ فقال النبي عليه السلام : (عربيته ، فالتمسوها في الشعر) . وقد أجاد ابن عطية في هذا الميدان ، ودلل على باع طويل في العربية ، وأمامك التفسير وستجد فيه من وجوه الإعراب ما يؤكد كلامنا ، وإن شئت فارجع إلى تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» وانظر ما نقله من آراء البصريين والكوفيين في إعراب كلمة (بسم) ـ أو فارجع إلى ماذكره عن اشتقاق كلمة (الملائكة) أو كلمة

(الشياطين) ، وما نقله من آراء اللغويين في ذلك ، وكيف فضل بعض الآراء على بعض عندما وردت هاتان الكلمتان في قوله تعالى : [وإذْ قَالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً] . وفي قوله تعالى : [فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عَنْهَا] .

غير أننا نلاحظ هنا أنه دائماً يُفَضلُ آراء سيبويه ، فتراه بعد أن يعرض الآراء يقول: «والصحيح قول سيبويه» .

٤ ـ والنقطة الرابعة أنه يهتم جداً بذكر كل القراءات ، ويورد منها الصحيح والشاذ ، وقد كان ابن عطية واضحاً جداً في هذا المجال حين قال في مقدمته : «وقصدت إيراد جميع القراءات ، مستعملها وشاذها ، واعتمدت تبيين المعاني ، وجميع محتملات الألفاظ».

فهو يذكر القراءات الصحيحة ، ويذكر القراءات الشاذة ، لكنه دائماً ينبه على شذوذها ، ولقد زاد من توضيح الأمر حين بَيَّنَ الفرق بين القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة بقوله : «ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يُصَلَّى ، لأنها ثبتت بالإجماع ، وأما شاذُّ القراءات فلا يُصلَّى به ، لأنه لم يُجْمِع الناس عليه» .

فالفرق عنده هو الإجماع وعدمه .

ثم يبين لنا السبب في روايته للقراءة الشاذة فيقول : « وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يُجْهَلْ » .

والمهم أنه لم يقف عند حدود الإشارة إلى القراءة الشاذة أو تضعيفها ، بل نراه في كثير من الأحيان يعلل وينقد ، ويستند في رده لها إلى قواعد اللغة ، أو قواعد النحو غير مُكْتَفٍ بعدم الإجماع ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وستراها في الكتاب فلا حاجة إلى التمثيل هنا .

٥ ـ النقطة الخامسة هي مذهبه الفقهي ، وابن عطية كان مالكي المذهب ، ولكنه كان غير متعصب لمذهبه ، بل كان يتحرى الحقيقة ، ويخضع للدليل عند ذكر الأحكام الفقهية ، ومن ذلك ماذكره عند تفسير قوله تعالى : [وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النكاحِ حَتَّى يبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ] فقد تعرض لذكر الخلاف القائم بين أئمة المذاهب في مسألة من تزوج امرأة في عدتها ، ودخل بها ، وذكر سنداً خاصاً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفيد

أن الجاهل بالحكم لا يتأبد عليه التحريم. وكان يذكر آراء أبي حنيفة والشافعي ، وَيَرُدُّ الرأي الذي لا يرتضي حجته ، أو لا يقبل دليله ، وبخاصة مذهب أبي داود الظاهري الذي ساد في الأندلس فترة من الزمن ، ومع هذا فابن عطية لا يُكثر من ذكر الأحكام الفقهية ، ولا يناقشها إلا في مواقف قليلة .

سادسا : الأساس السادس في منهج ابن عطية هو وضوح شخصيته في تفسيره ـ ولقد كان له دور بارز ، وله رأيه الذي يثبته بوضوح وقوة .

نعم هو ينقل آراء السابقين ، ويعتمد على المأثور في التفسير ، وأول الآثار التي ينقلها هي : الأحاديث النبوية ، ثم أقوال الصحابة والتابعين ، وكبار العلماء المعروفين ، كعلي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وسعيد ابن جبير ، والضحاك ، وعكرمة ، وقتادة،وأبي العالية،والسدّي ، والحسن بن أبي الحسن ، ومجاهد بن جبر ، وغيرهم ، لكنه لايذكر الأسانيد قصداً إلى عدم الإطالة تحقيقاً لمبدئه في «محرره الوجيز» ـ وإذا كثرت الآراء اختار ورجّح ـ وكان دائماً يقف عند الأحاديث وكل ما يُنقَل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويظهر أنه كان ينقل هذه الأحاديث الشريفة عن كتب التفسير السابقة ، ولهذا نراه في بعض المواقف ينقل أحاديث ضعيفة ، أو موضوعة ، دون تحقيق منه أو تعليق عليها .

لكن هذا كله لم يقلل من دوره في الكتاب ، فهو واضح الشخصية كما قلنا ، وهو يبدي رأيه في كثير من المواقف معتمداً على جهده ـ «كل ذلك بحسب جهدي ، وما انتهى إليه علمي» . وجهده وعلمه في الاختيار أو الترجيح أو التوفيق بين الآراء المختلفة ـ يظهران في اعتماده على : اللغة ، أو المنطق والعقل ، أو الأحاديث النبوية كما قلنا .

ثم يظهر علمه وجهده في الرأي الجديد الذي يخرج به مخالفاً للمفسرين قبله ـ وأكثر آرائه الجديدة لها وجاهتها ودقتها ووقعها في النفوس والعقول ، وسترى ذلك في مواضع كثيرة من هذا التفسير العظيم .

سابعا : من الملاحظات الجديرة بالبحث والتأمل أن ابن عطية لم يتجه في تفسيره إلى أسرار البلاغة القرآنية ، ولم يكثر من إيراد وجوه الإعجاز البياني كما فعل الزمخشري مثلا .

ولعل السر في ذلك أن أهل المغرب عموماً برعوا في علوم اللسانيات ، واهتموا بالدراسات اللغوية ، لكنهم لم يبرزوا في علوم البيان كأهل المشرق ، وابن عطية واحد منهم .

وابن عطية يميل إلى تضييق مجال المجاز في القرآن ، ويحرص على التزام الحقيقة ، وكل لفظة يمكن حملها على الحقيقة لاداعي عنده إلى إخراجها عن ذلك إلى ميدان التجوز . ولبعض الباحثين المعاصرين آراءٌ قد تتهم ابن عطية بالعجز عن فهم أسرار البلاغة ، وبالخلط أحياناً بين الاستعارة والتشبيه ، لكن هذا الكلام غير وارد بالنسبة إلى عالم كبير له هذا الباع الطويل في مجال اللغة والقراءات والأحكام ـ إنما هو مبدأٌ التزمه الرجل وليس تقصيراً أو عجزاً .

كذلك نلاحظ أنه قليل الميل إلى سرد آراء الفلاسفة والحكماء ، وإنما يأْخذ منها بطرف ، وعندما ينقل عن علماء الكلام فإنه يكون واضحاً محدداً ، لا ينقل الآراء بأسلوب يخل بجوهرها ، بل يحرص على الاحتفاظ بالصورة الأصلية للرأي ، ويقدمها في دقة . وكان واضح الالتزام بمذهب أهل السنة ، لكنه ـ في بعض الأحيان ـ كان يميل إلى رأي غيرهم ، أو على الأقل يضع الرأي المخالف موضع التقدير ، ولقد قيل عنه إنه يميل إلى المعتزلة ، ويأْخذ بآرائهم ، وهذا قول مردود ، ناقشناه في موضعه من هذا التقديم ، وبينا رأينا فيه بصراحة .

ثامناً : لعله من الملائم هنا أن نثبت حقيقة وضحت لنا في أثناء عملنا بهذا التفسير ، وهي أن ابن عطية عندما يتعرض لنقطة لا يتركها حتى يوفيها حقها من البحث والاستقصاء ومهما كان البحث الذي يتعرض له فهو دائماً عالم مطلع ملم بالآراء المختلفة .

ارجع إلى تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة : [مَالِكِ يَوْمِ ٱلدين] ، وسترى أنه بدأ فيه بالقراءات فأفاض فيها وأجاد ، وذكر العلل اللغوية ، وسَرَدَ الروايات ، وناقشها مناقشة لغوية وعقلية ، وأثبت تبحره في علم القراءات ، ثم أثبت قدرته اللغوية حين نقل المعاني المختلفة لكلمة (الدين) ، وقال : إنها تأْتي في كلام العرب على أنحاء منها : «الملّة ـ وحظُّ الرجل في أقواله وأعماله ، واعتقاداته ـ والعادة ـ وسيرة الملك ـ والجزاءُ ـ والذلُّ ـ والسياسة ـ والحال ـ والداءُ» . ـ وكان كلما ذكر نحواً من هذه

الأَنحاءِ استشهد عليه من كتاب الله تعالى ، ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أَشعار العرب وآثارهم . وكثيراً ما ساق على المعنى الواحد أَكثر من شاهد ، وعلَّق على الشواهد ، وأَبان عن موضع الاستشهاد ، وكثيراً ما ينسب الأَشعار والآثار لأَصحابها ، مع حرص على التنسيق والتتابع ـ وبعد ذلك كله تراه يختار المعنى المناسب ، ويدلل على اختياره ، ومثل هذا تراه أَيضاً في توضيح معنى (الهداية) عند تفسير قول الله تعالى : [اهْدِنَا ٱلصراطَ المُسْتَقِيمَ] . فهو يذكر احتمالات اللفظ في اللغة ، ويدلل على كل احتمال ، ويستشهد له في استقصاءٍ يدل على تبحر في العلم ، وعلى اطلاع واسع ، حتى لربما ظن بعض القارئين لتفسيره أَنه يحاول أَن يثبت قدراته في مجالات العلوم المختلفة ، فهو نوع من استعراض العضلات إن صح هذا التعبير عن رجل يتعرض لعمل عظيم هو تفسير كتاب الله تعالى .

غير أَن الإِنصاف يقتضي أَن ننفي هذا الظن ، وأَن نقول : إن الرجل يعطي القارئ فوائد في العلوم المختلفة ، وإن الطريق لم يضل به أَبداً .

لقد كان ابن عطية دائماً مفهوماً ، محدد الخطوات ، واضح العبارات ، جامعاً كل قول إلى رفيقه ، فاصلا بين الآراءِ بما يوضح حدود كل رأْي ، وحسبك منه هذا إلى جانب علمه لتعترف له بما هو جدير به من العلم والدقة والتنسيق والاستقصاءِ في البحث .

تاسعاً : ابن عطية يميل إلى تفسير القرآن بالقرآن ، أَو على الأَقل يختار الرأْي الذي يؤيده القرآن ، راجع تفسيره لقول الله تعالى في سورة الفاتحة : [غير المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، ولا ٱلضَّالينَ] ، تجده يقول : «و (المغضوب عليهم) اليهود ـ و (الضالين) النصارى » ونسب هذا الرأْي لأَصحابه ، ثم قال : «وذلك بَيِّنٌ من كتاب الله تعالى ، لأَن ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه ، كقوله : [وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله] ، وكقوله تعالى : [قُلْ هَلْ أُنَبئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللهُ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ] .

وهكذا يمضي فيدلل على اختياره بكتاب الله تعالى ، ويقرن الدليل بالدليل ، ويتبع الحجة بحجة أُخرى .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان يقف عند الحديث النبوي . فلا يأخذ برأي بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عاشراً : ومما يذكر لابن عطية أنه كان يفسر آيات الجهاد تفسير البطل الذي خبر الحروب وذاق قسوة المعارك ، وقد عرفنا من حياته أنه واحد من العلماء المجاهدين ، جمع بين فضيلتي الجهاد بالقلم ، والجهاد بالسيف في الميدان .

آراء العلماء في تفسيره :

أجمع العلماءُ على أن تفسير ابن عطية فريد بين التفاسير المختلفة ، وكلهم أقروا بفضله ، واعترفوا بعلمه ، ولا نظن أن هناك إجماعاً على وجود كثير من القيم الفنية والعلمية في واحد من التفاسير كهذا التفسير ، مع أن هؤلاء العلماء يمثلون مذاهب مختلفة ، وعقليات متباينة ، والحق دائماً واضح منير .

وهذه بعض الآراء ننقلها لك عن أصحابها حتى تتأكد من صحة ما ذهبنا إليه :

١ ـ نقل صاحب «كشف الظنون» عن أبي حيان رأيه في تفسير ابن عطية فقال :

«وقد أثنى عليه أبو حيان وقال : هو أجلُّ مَن صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير»(١) .

ومن العجيب أنك حين ترجع إلى تفسير أبي حيان تجده دائماً يتتبع أقوال ابن عطية في الإعراب واللغة ، ويعلق عليها بالنقد ، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يقل إلا الحق الذي يمليه عليه ضميره ، والذي حمله على استخدام كلمتي : (أجلُّ ـ وأفضل) .

٢ ـ وقال صاحب «بغية الملتمس» بعد أن ذكر اسمه ونسبه:

ألف في التفسير كتاباً ضخماً ، أربى فيه على كل متقدم ، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ـ قرأ عليه جميعه بالمرية» (٢) .

---

(١) كشف الظنون (١٦/٣) ـ وكلام أبي حيان في البحر المحيط (١٠/١) .
(٢) بغية الملتمس ٣٧٦ .

٣ ـ ويقول أبو حيان عندما قارن بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري :

«وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ـ وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص»(١) .

٤ ـ وقال ابن خلدون في «مقدمته» :

«وجاء أبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها ، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى» (٢) .

٥ ـ ويعقد ابن تَيْمية رحمه الله مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري في «فتاويه» فيقول :

«وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا ، وبحثاً ، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير» (٣) .

أثره في المفسرين بعده :

إن أبلغ دليل على قيمة تفسير ابن عطية أنه ترك آثاراً واضحة في مناهج المفسرين بعده ، ومن الطبيعي أن يكون تأثر المفسرين من أبناء المغرب العربي أقوى من تأثر زملائهم في المشرق العربي .

وأهم من تأثر به أربعة ، هم :

١ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ . فقد ظهر تأثره بابن عطية واضحاً في كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» ، فالمتتبع لهذا التفسير الجليل

(١) كشف الظنون ١٦/٣

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٤٨

(٣) فتاوي ابن تيمية ١٩٤/٢ .

يرى أنه يكاد يسير في خط ابن عطية ، بمعنى أنه التزم نفس المنهج الذي وضع أسسه ابن عطية .

قال الإمام ابن خلدون رحمه الله في المقدمة :

«وقد تتبع القرطبي في تفسيره ابن عطية ، وسار على منهجه وطريقته . والقرطبي نفسه يضع لنفسه خطوطاً في مقدمة تفسيره ترينا أنه سلك طريق ابن عطية ، ولم نجد اختلافاً بين الرجلين إلا في عناية القرطبي بتخريج الأحاديث النبوية ـ لكنه إلى جانب هذه الميزة أكثر من الإسرائيليات على عكس ابن عطية فكانت هذه عليه لو كنا في مجال الموازنة والمقارنة ـ ويبقى لابن عطية فضل السبق » .

ب ـ أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ـ فقد تأثر كثيراً بابن عطية في تفسيره المسمي «البحر المحيط» .

وأبو حيان يعترف في مقدمته لتفسيره بأنه اعتمد على إمامين كبيرين من أئمة التفسير ، هما الزمخشري وابن عطية ، وقال عنهما : «إنهما أجل من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير». ـ والمنهج الذي سلكه أبو حيان يكاد يشابه منهج ابن عطية ولكنه عني عناية كبيرة بنقل آراء ابن عطية والتعقيب عليها ـ فلا تكاد تمر مسألة في اللغة والنحو ، أو في القراءات إلا وينقل رأي ابن عطية فيها ، لكنه يتتبعه في أكثر النقاط بالتعليق وبالنقد ، وله في ذلك نكات لطيفة ، ونظرات صائبة ، لكنه في بعض الأحيان يكون متجنياً ، ويبدو وكأن جُل همه هو إظهار نواحي الخطإ في كلام ابن عطية ، وقد أشرنا في ذيل الصفحات إلى كثير من هذه النقاط التي تَعَقَّبَ فيها أبو حيان ابن عطية بالنقل والنقد والمخالفة .

ولقد عني بعض العلماء بجمع آراء أبي حيان التي عقب فيها على أقوال ابن عطية والزمخشري في كتب خاصة ، ومن أشهرها كتاب : «المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري» .وهو فيما نعلم لا يزال مخطوطاً إلى اليوم .

جـ ـ الشيخ العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥ هـ . فقد اختصر تفسير ابن عطية في كتاب له سماه : «الجواهر

الحسان في تفسير القرآن» . وهذا واضح صريح في كتابه هذا . في المقدمة ، وفي الخاتمة .

قال في المقدمة :

«فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يُقِرَّ الله به عيني وعينك ، فقد ضمَّنْتُه ـ بحمد الله ـ المهمَّ مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأُمة» .

ثم قال في الخاتمة :

«وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية ، وأسقطت كثيرا من التكرار ، وما كان من الشواذ في غاية الوهى ، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها» .

وهذا الكلام يوضح نقطتين :ـ **الأولى** : أن الثعالبي اعتمد كثيراً على تفسير ابن عطية ، **والثانية** : أنه زاد عليه بالتعليق ، ونقل آراءَ أُخرى لأئمة العلماءِ في مختلف العلوم والفنون ، لكن الرجل كان منصفاً إذ دافع عن ابن عطية في كثير من الآراءِ .

وقد صرح بذلك كله الشيخ أحمد بابا السوداني في : «نيل الابتهاج» في ترجمة الثعالبي نقلا عن شيخه السخاوي وغيره .

د ـ وذكر شمس الدين الداودي في طبقات المفسرين في: «ترجمة عبد الكبير بن محمد ابن عيسي أبي محمد الغافقي المرسي» أنه صنَّف تفسيراً جمع فيه تفسير ابن عطية ، وتفسير الزمخشري .

ولسنا نحاول أن نزيد من الثناءِ على تفسير ابن عطية ، أو الدفاع عنه ، فإنه ليس في موضع الاتهام ، ولم يقلل أحد أبداً من قيمته ، لكننا نحب أن نبين الحقائق وأن ننسب الفضل لأصحابه ، والتفسير بين أيديكم ، وهو حجة واضحة على أن هذا الرجل قد أعد عدته ، وشحذ همته ، وبذل جهده وطاقته في تفسيره هذا ، وكان على مستوى العمل الذي تعرض له ، وجاءَ فيه بالجديد المبدع .

عقيدة ابن عطية من خلال تفسيره :

أثار بعض العلماء جدلا حول مذهب ابن عطية ـ وذهبوا إلى أنه يميل أحياناً إلى مذهب المعتزلة ، وقد يختاره على مذهب أهل السنة ولو في بعض الأُمور .

١ ـ ومن الذين تكلموا في هذا الموضوع من أجلة العلماء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ـ وقد ذكر رأيه هذا في كتابه : «مقدمة في أُصول التفسير ـ ص ٢٣» قال : «تفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه ـ لكان أحسن وأجمل ، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أُصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أُصولهم ، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة» ا هـ .

وواضح أن ابن تيمية رحمه الله يذكر هنا ثلاث حقائق فيما يرى :

الأولى : أن تفسير ابن عطية أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدع من تفسير الزمخشري . وهذا الكلام يغمز ابن عطية بالاعتزال لكنه يخفف من اعتزاله ، ويجعله أقرب إلى أهل السنة بالنسبة إلى الزمخشري ، فهو قُرْبٌ نسبي .

الثانية : أنه ينقل عن الطبري ، ولكنه يترك ما نقله ابن جرير عن السلف فلا يحكيه ، ولو أنه ذكر كلامهم هذا لكان تفسيره أحسن وأجمل ، ولسنا نظن أن ابن عطية كان مُلْزَماً بنقل كل كلام السلف الذي نقله ابن جرير الطبري ، فلكلٍّ أُسلوبه ، وقد كان ابن جرير ينقل كل الآراء ، ويُرَجح بعضها على بعض أحياناً ، وفي أحيان أُخرى يتركها بدون ترجيح ، أما ابن عطية فلا يختار هذا الأُسلوب ـ إنه صاحب منهج يقوم على مبادئ ، ومن مبادئه ألا ينقل إلا ما يطمئن إلى صحته ، ويرى أنه يتفق مع العقل ـ فنقد ابن تيمية غير وارد ، وهل معنى أن يكون ابن عطية من أهل السنة والجماعة أن يتقبل كل صغيرة وكبيرة ، وأن يسلّم بكل ما يقوله علماء المذهب دون أن يكون له رأي شخصي ؟ إن هذا يلغي شخصيته ، ويلغي شخصية كل عالم يريد أن ينصف نفسه ويحترم عقله ـ وإذا كان ابن تيمية في زمانه يتقبل هذا الرأي ويؤمن به فما أحسبنا في هذه الأيام

نرضى لأنفسنا بأن نسلم للسابقين بكل قول حتى ولو لم تقبله عقولنا ، وهذا هو ما فعله ابن عطية على الرغم من تقدمه الكبير في الزمن علينا .

الثالثة : تكشف عن الغاية الحقيقية من كلام ابن تيمية ، إنه يعيب على ابن عطية أنه في بعض الأحيان يميل إلى آراء جماعة من علماء الكلام يسيرون على نهج المعتزلة في استدلالاتهم ، وهو صاحب مذهب ، وله مطلق الحرية في أن يأخذ بما يرى ، لكننا نؤمن أيضاً بأن ابن عطية صاحب رأي ، وله أيضاً مذهبه ـ إنه يؤمن بالنقل وبالعقل معاً ـ فإن اتفق في معقوله مع علماء المعتزلة في بعض الأمور ، فإن هذا لاينهض دليلا على أنه واحد منهم ، لأنه في كل آرائه الأخرى يناقضهم ، ويعيب عليهم ، ويرد عليهم حججهم فلماذا إذا نتمسك بنقطة أو نقطتين ، ونجعل منهما أساساً للحكم على مذهب الرجل ، ونترك مئات النقاط والآراء التي يخالفهم فيها ؟ إن الحكم بمثل هذا حكم غير عادل في ميزان الإنصاف والحقائق .

٢ ـ وهناك عالم جليل آخر أثار هذه النقطة ، واتهم ابن عطية بأنه أخطر على المبتدئين من الزمخشري ، لأن الزمخشري معروف المذهب ، والناس يتناولون كلامه على حذر ، أما ابن عطية فغير مشهور بالاعتزال كالزمخشري ، ومن هنا كانت خطورته على المتعلمين .

هذا العالم هو شيخ الإسلام أحمد بن حجر المتوفى سنة ٩٧٣ هـ ـ وقد ذكر هذا الكلام في كتابه «الفتاوي الحديثة» وقد جاء فيه سؤال وجواب ـ أما السؤال فهو : هل في تفسير ابن عطية اعتزال ؟ ـ وأما الجواب فكان ـ نعم ـ فيه شيءٌ كثير ، ثم نقل عن (ابن عرفة) ما أشرنا إليه من أن ابن عطية أشد خطراً على المبتدئين من الزمخشري .

٣ ـ وقال بعض الباحثين : «من تأمل تفسيره لقوله تعالى : [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ] أدرك أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة ، أو أنه يقدر ما تذهب إليه المعتزلة في مسألة الرؤية ، وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور ، أي أهل السنة والجماعة» .

وأبسط ما يقال في الرد على مثل هذا الكلام أن ابن عطية ذكر في تفسير (الزيادة) في هذه الآية قولين :

القول الأول : أن الزيادة هي النظر إلى الله عز وجل ـ وأيده بأنه رُوِيَ فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ رواه صهيب ـ وبأنه رُوِيَ عن أبي بكر ، وحذيفة ، وأبي موسى الأشعري .

القول الثاني : أن الزيادة هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة ضعف.

ثم قال ابن عطية تعقيباً على القولين : «وهذا قول يعضده النظر ، ولولا عظم القائلين بالأول لترجح هذا القول » . هذا هو كل ما أُخذ على ابن عطية

والباحث المدقق يرى :

ا ـ أن ابن عطية لم يُرَجح القول الثاني ، بل أعطى كل قول حقه ، فالأول مروي عن عظماء علينا لهم حق الاستماع والتقدير ، والثاني يعضده العقل والفكر ـ ولكن أيهما أخذ به ابن عطية ؟ لم يقطع ، ولم يقل ـ بل قال : «لولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول » . فترجيحه لم يتم لأن القائلين بالرأي الأول أعظم .

ب ـ أن القول الثاني مروي عن ابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد وقتادة ، فهل نقول : إن هؤلاء من المعتزلة أيضاً ؟

جـ ـ وقف ابن عطية من المعتزلة موقفاً صريحاً واضحاً في كل النقاط المعروفة بأنها موضع خلاف بين أهل السنة وبين المعتزلة ـ وكان دائماً ينصر رأي أهل السنة ، ويعيب على المعتزلة بعبارات فيها طعن وغمز وتجريح ، ونذكر منها هذه الأمثلة :

١ ـ قال في تفسير قوله تعالى :[وَلَوْ يَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا إِذْ يرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لله جَمِيعاً] : ـ «وثبت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف قول المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة » .

٢ ـ وقال عند تفسير قوله تعالى : [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] ـ «وفي قوله تعالى : «أُعِدَّتْ» ردٌّ على من قال : إن النار لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد» وتأمل قوله : «سقط فيه» لتعلم مقدار نفوره من مذهب منذر بن سعيد هذا ، وهو واضح الاعتزال .

٣ ـ وقال عند تفسير قوله تعالى : [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدمَ فَسَجَدوا إلا إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ] ـ «معنى (وكان من الكافرين) أي في علم الله تعالى أنه سيكفر ، لأن الكافر حقيقة ،والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة ».

٤ ـ وعند تفسيره لقول الله تعالى : [فإمَّا يَأْتينَكُمْ مِني هُدًى] ـ قال : «وفي قوله : «مني» إشارة إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى» .

٥ ـ وعند تفسير قوله تعالى : [وإنها لكبيرة إلا علَى الخاشعين ، الذين يظنون أنَّهم

ملاقوا ربهم] . قال : «ويصح أن تكون الملاقاة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة ، وورد بها متواتر الحديث» . فتأمل قوله : «وورد بها متواتر الحديث» .

٦ - وعند تفسير قول الله تعالى : [الله لا إله إلا هُوَ الحيُّ القيوم] يثبت صفة الحياة لله على مذهب أهل السنة والجماعة ، ثم يقول : «وذكر الطبري عن قوم أنهم قالوا : لله حياة لا بحياة» - وَيُعَقِّبُ على ذلك بقوله : «وهذا قول المعتزلة ، وهو قول مرغوب عنه» .

٧ - وعند تفسير قول الله تعالى : [لا تُدرِكُهُ الأَبْصارُ ، وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصار ، وَهُو اللَّطيفُ الْخَبير] يذكر رأي أهل السنة فيقول : «أجمع أهل السنة على أن الله عز وجل يُرى يوم القيامة..... الخ» ، وبعد أن ينسب القول لأهله من السلف يقول : «والوجه أن يبين جواز ذلك عقلا ، ثم يستند إلى وقوع السمع بوقوع ذلك الجائز ، واختصار تبْيين ذلك أن يعتبر بعلمنا الله عز وجل ، فمن حيث جاز أن تعلمه لافي مكان ، ولا متحيزاً ، ولا مقابلا ، ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود - جاز أن نراه غير مقابل ، ولا محازى ، ولا مكيف ، ولا محدود» . وهو بهذا ينتقض دليل المعتزلة القائلين بأن الرؤية تقتضي مقابلة وتحيزاً وزماناً ومكاناً ... الخ .

ثم يمضي في هدم رأي المعتزلة فيقول : «ثم ورد الشرع بذلك ، وهو قوله عز وجل : [وجوهٌ يوْمئذٍ ناضِرةٌ ، إلى ربها ناظِرَةٌ] - وتعدية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا لمعنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما صحَّ عنه **وتواتر** وكثر نقله - (إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر) ... الخ ماقال .

وكلامه هنا طويل ، ومدعم بالحجج النقلية والعقلية وهو موجود في موضعه في التفسير في سورة الأنعام .

فهل بعد هذا كله - وهو غيض من فيض كما يقولون ، أو نقطة من بحر - هل بعد هذا يقال : إنه يميل إلى رأي المعتزلة ؟

الحق أن ابن عطية كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، ولكن عن اقتناع لا عن تقليد ، وعن فهم لا عن تسليم .

منهجنا في هذا التحقيق :

حين بدأ العمل في تحقيق هذا التفسير الجليل ، كان الهدف الأول هو البحث عن النسخ الخطية التي يمكن الرجوع إليها ، وقد أُتيحت لنا فرصة الاعتماد على بعض النسخ المخطوطة ، لكنها كلها تعرضت لأضرار كثيرة أو قليلة ، واحتاجت منا إلى جهود واضحة حتى نصل إلى الأصل الذي لانشك في أنه عمل ابن عطية .

وأهم النسخ التي يمكن الإشارة إليها هي :

١ - نسخة كاملة مصورة من تونس ، بخط مغربي .

٢ - النسخة الملكية التي قسمت تفسير ابن عطية إلى أربعة أجزاء ، الجزءُ الأول ينتهي إلى قوله تعالى : [ورفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات] . وقد أُرخ بيوم السبت الخامس والعشرين من صفر الخير عام تسعة وتسعين ومائة وألف - وهو تحت رقم (٨٥٣١) - وعدد صفحاته (٥٨٩) .

٣ - النسخة الناصرية الموجودة بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأوقاف بالمملكة المغربية ، رقم (٨٨٠) - والجزءُ الأول منها يصل إلى قوله تعالى : [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ] ، وهو تحت رقم (١٣٢٧) - وعدد صفحاته (٢٩٨) .

٤ - النسخة الناصرية الموجودة كذلك بالخزانة العامة ضمن مخطوطات الأوقاف بالمملكة المغربية تحت رقم (١٨٦) ، والجزءُ الأول منها يبلغ إلى قوله تعالى : [يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ] . وهو تحت رقم (٢٣١) - وعدد صفحاته (٣٦٢) .

٥ - النسخة اليوسفية - وينتهي الجزءُ الأول منها بانتهاءِ سورة البقرة ، وهو تحت رقم (١٧٣) ، وعدد صفحاته (٢٠٢) .

٦ - نسخة المكتبة العامة بالعرائش ، وينتهي الجزءُ الأول منها بانتهاءِ سورة البقرة كذلك ، وليس له رقم ، وعدد صفحاته (٣٩١) .

والنسخة التي جُعلت أساساً للإخراج ، وكان الاعتماد الأول عليها هي النسخة الناصرية التي تنتمي للأوقاف ، لأنها مع ما أصابها من أضرار كانت أقرب النسخ إلى السلامة ، أما بقية النسخ فقد كانت مساعدة ومعينة عند البحث .

فإن صادف المرءُ الصواب فهذا من فضل الله وعطائه ، وإلا فالمركب صعب غير ذلول ، والإنسان موضع الضعف والقصور ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد قصدنا في منهج عملنا أن نحقق ما يأتي :

أولا : الوصول بقدر الإمكان إلى الأصل الذي نطمئن إليه ، والذي نثق أنه كلام ابن عطية ـ والخطة الغالبة في هذا أنه إذا اختلفت النسخ ، وكانت كلها تمس الموضوع أن نشير إلى مافيها من كلمات بلفظ «وفي بعض النسخ» من دون أن تضاف ، ولا أن توصف بصفات ، وأن يعتبر ما زيد فيها من العبارات ، ويتجاوز عما كان من النقص .

ثانياً : عُنينا بضبط الكلمات التي نراها مظنَّةً للتحريف أو الخطإ عند النطق ، وهدفنا من هذا أن نساعد القارئَ على نطق العبارة في صورتها الصحيحة من أول الأمر ، وراعينا أن نساعد القارئَ على ذلك بالفواصل ، وعلامات الترقيم ، والرجوع من أول السطر ، والفصل بين العبارات والجمل المنقولة ، والآراء المنسوبة لأصحابها ، بحيث يستقل كل كلام عن غيره ، وبحيث يعرف القارئُ كلام ابن عطية من كلام العلماء الذين ينقل عنهم ، وفي هذا المجال كنا نضع هذه العبارة دائماً في أول السطر : «قال القاضي أبو محمد رحمه الله» . لندل على أن الكلام التابع لها إنما هو من كلام ابن عطية الذي يريد به التعليق أو النقد أو أي شيءٍ آخر .

وتحقيقاً لهذه الفائدة وضعنا الآيات القرآنية التي يذكرها المؤلف للاستشهاد بها بين هاتين العلامتين [ ] ـ ووضعنا الأحاديث النبوية بين هاتين العلامتين ( ) أما الآثار التي نرى لها أهمية فقد نضعها بين علامتي التنصيص « » ـ وكذلك بعض الأقوال المنسوبة لأصحابها .

ثالثاً : راعينا ضبط الآيات القرآنية كلها بالشكل ـ أما الآيات المفَسَّرَةُ فهي منقولة من المصحف الكريم مع الأرقام وقد وضعناها بين هاتين العلامتين ﴿ ﴾ . وأما الآيات التي تأتي للاستشهاد فنشير في أسفل الصفحات إلى رقم الآية ، والسورة التي ذكرت فيها حتى يسهل الرجوع إليها في موضعها من هذا التفسير أو من غيره لمن يريد ذلك .

رابعاً : أما الأحاديث النبوية فقد حرصنا على تخريجها ، وقد نذكر بعض روايات أخرى ورد بها الحديث غير الرواية التي ذكرها المؤلف ، وقد نكمل الحديث إذا كان المؤلف قد ذكر جزءًا منه استكمالا للفائدة ، وتسهيلا على من يريد الرجوع إلى الحديث في مصادره الأصلية .

خامساً : الأبيات الشعرية ضبطناها بالشكل ، ونسبناها إلى قائلها إذا أغفل ابن عطية النسبة ، وقد نشير إلى بعض الأبيات السابقة أو التالية للبيت الذي استشهد به المؤلف ، ونكمل أيضاً البيت إذا كان قد ذكر نصفه ، وقد نشير إلى اختلاف في رواية بعض الألفاظ في البيت ـ ثم حرصنا على التعريف بالقائل إذا كان اسمه يرد لأول مرة ، وحرصنا على شرح بعض الكلمات الغامضة أو التراكيب الصعبة حتى لا نلجئ القارئ إلى الاعتماد على مراجع لغوية ، وقد نذكر المرجع الذي اعتمدنا عليه ، وقد نتركه خشية الإطالة ، وكتب اللغة والمعاجم اليوم كثيرة ، لكن أهم المراجع التي اعتمدنا عليها هي : «اللسان ، والقاموس المحيط ، والصحاح ، والمعجم الوسيط» .

سادساً : حققنا أسماء الأماكن والأعلام من رجال الفقه والكلام ، واللغة والنحو ، والقراءات ، وغيرهم ممن ذكرهم المؤلف ، وكذلك أسماء الشعراء ، وضبطناها بالشكل إن احتاجت ، ونبهنا على من يكون في اسمه شيءٌ من تحريف الرواة ، وَعَرَّفْنَا بالمشهورين من كل هؤلاء عند ذكر الواحد منهم لأول مرة .

سابعاً : قمنا بالتعليق الخفيف على كلام المؤلف في بعض الموضوعات ، وهدفنا من ذلك :

ـ توضيح المعنى إذا رأينا فيه شيئاً من غموض .

ـ ربط الكلام ببعضه إذا طال الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه مثلا .

ـ الإشارة إلى ما قد يبدو من تناقض في كلام المؤلف ، كأن يروي بيت الشعر بروايتين مختلفتين في موضعين متباعدين ، وكذلك في بعض الأقوال والآثار التي استشهد بها .

ـ تسجيل بعض آراءٍ نرى أنها جديرة بالنظر ، وخصوصاً للمفسرين الذين استفادوا من ابن عطية كالقرطبي ، وأبي حيان ، وابن كثير ، واستعملنا في ذلك بعض الرموز اختصاراً للكتابة وهي :

[الطاءُ ـ والقاف ـ والكاف ـ والحاءُ ـ والخاءُ] هكذا : [(ط) (ق) (ك) (ح) (خ)]

وهي على الترتيب تشير إلى :

[الطبري ـ القرطبي ـ ابن كثير ـ أبو حيان ـ مختصر ابن عطية [رحمهم الله جميعاً].

وكل مالم يُنْسب إلى قائله لا بالرموز ولا بالتصريح فهو مما اتفق لنا ، ونسأل الله التوفيق .

ثامناً : أعددنا فهارس مختلفة رأينا أن ينتهي بها الكتاب ـ إن شاء الله ـ في جزءٍ مستقل أو أكثر ، وهي تسعة فهارس :

١ ـ ألأبواب والموضوعات .

٢ ـ ألأعلام .

٣ ـ ألبلدان والأماكن .

٤ ـ ألأحاديث النبوية .

٥ ـ ألآثار السلفية .

٦ ـ ألكتب .

٧ ـ ألأمثال والأقوال

٨ ـ ألغزوات وأيام العرب .

٩ ـ ألشواهد الشعرية .

وأخيراً نسأل القارئ الكريم أن يتقبل عملنا بصدر رحب ، وأن يتسامح في هفواتنا ، فالإنسان كما قلنا موضع الضعف والتقصير .

غفر الله لنا أخطاءنا ، وأثابنا بنياتنا ، وتقبل منا عملنا الذي قصدنا به وجهه الكريم، منه نرجو العون والسداد ، وهو ولي التوفيق في المبدإ والمعاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ... وهو حسبنا ونعم الوكيل

الدوحة في غرة محرم الحرام ١٣٩٨ هـ

الموافق ١١ ديسمبر ١٩٧٧ م

المحققون

الرحالي الفاروق — عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد — محمد الشافعي صادق